

رحلة البحث عن الكائن الجميل *

د. عبد الباسط مير غني **

"إنكم تستطيعون أن تحاكموني ولكنكم لن تستطيعوا الحكم عليّ، فإن هذا للشعب وللتاريخ!"

عبيد حاج الأمين

التعدد الثقافي والشخصية الثقافية

كان من المؤمل أن يقول علماء النفس السودانيون كلمة عبر رحلة البحث الطويلة عن الهوية والمواطنة والشخصية، ولكننا لأسباب شتى تقاعسنا واستكفنا القيام بالواجب حتى سالت دماء كثيرة بسبب الخلافات، واعترت الهوية تشوهات فانقضنا في زمن العنف المأساوي كالممسوس لا يلوى على شيء. وكما هو الوضع في حالة الاعتذارات الواهية، نقول أن تأتي متأخراً خير من أن لا تأتي البتة.

واقف الحال

ظلال من القلق وضباب متزايد من الحيرة والارتباك وضعت ميسمها على ملامح الشخصية السودانية في زمن كان المأمول أن يكون الحال غير ذلك، والسبب جليّ إذ أن السودان لم يصبح بعد دولة موحدة أو كياناً ذو هوية واحدة كما نود ونأمل. وإذا حالفنا التفاؤل، يمكن أن نقول أنه مشروع دولة كبرى، وإن تلبسنا التشاؤم — لا قدر الله —، نقول أنه مشروع دويلات كان أسماها السودان! مدعاة هذين الافتراضين، أنه في مستهل هذا البحث عن الشخصية السودانية جابهتنا مصاعب جمّة من حيث الثبوت الموثق، ولذا نرى أنه من الصعوبة بمكان الحديث عن هوية جامعة، أو شخصية سودانية جامعة مانعة بالمعنى الحرفي للكلمة. وفي ظل الوضعية الإثنية والجغرافية الماثلة، استجدنا بمدخل الشخصية الثقافية وجعلناها محور بحثنا، ذلك لأن الشخصية الثقافية تمثل جوهر السواء في حراكها الواعي عبر الحقب التاريخية، والشخصية الثقافية لها أثر واضح ملموس، ولها سلوك بائن، وتتباين عندها درجات السواء وغير السواء. ولأن الطبيعة البشرية تتسم بقدر من الثبات، كذلك تحظى ملامح الشخصية في عموميتها بالثبات، إلا أن مسحة من التغيير تبقى تظلّل السلوك حسب المعطيات الاجتماعية. وهكذا، يمكن متابعة دراسة الشخصية بسهولة في واقع الحياة اليومية. متابعة الثابت



والمتميز في دراسة الشخصية وثق له في مجال دراسة المجتمعات البدائية وهو مجال خصب وثرى يحفز الدارس ويشدق قرائح التحليل البناء. ومما يحفز لهذا المنحى أن تاريخ السودان الحديث يزخر بتراث ثقافي ثري يوثق للشخصية السودانية في حراكها الوطني المبدع. وحتى لا نطلق الصفات جزافاً عن الشجاعة والكرم والكبرياء والثبات عند المكاره، وخصائص أخرى متعارف عليها عند الشخص السوداني، لذا ارتئينا إعمال العقل بالرجوع لعدة نظريات غربية وعلماء متباينين الرؤى في علم الشخصية. فتعدد الرؤى لعلماء مثل غوردون البورت وسيجموند فرويد وإريكسون، إريك فروم، أبرهام ماسلو لجديرة بالوقوف عندها. وتناولنا بعض آراء أولئك الكتاب في أطروحاتهم مع بعض ما يطرحه مفكرون عرب وكتاب سودانيين وثقوا دون تحيز للحراك الوطني الثقافي في السودان.

عُرفت الشخصية بأنها جملة السمات الجسمانية والعقلية والانفعالية والوجدانية والاجتماعية التي تميز الشخص عن غيره. وفي تعريف أكثر شمولاً لإريك فروم (1900-1980) الشخصية مجموعة من الصفات الموروثة والمكتسبة من تجارب الطفولة المبكرة وتجارب الحياة، وأن المجتمع الذي يعيش فيه الفرد يمثل عاملاً هاماً في تكوين الشخصية ونموها. بالتالي، يقول فروم أن الفرد ليس كائناً منعزلاً، بل يحتاج للآخرين لإشباع حاجته لتحقيق الطمأنينة والأمن ليؤكد استمراره، والحاجة إلي الآخرين تجربة يمارسها كل إنسان منذ طفولته لعجزه عن الاعتماد علي نفسه، وشعوره بالخطر في وحدته، وبما أن الإنسان لا يستطيع أن ينسلخ عن الظروف الاجتماعية التي تحيط به فهو يعاني من الازدواجية بين الميل الاجتماعي والمطالب البيولوجية وبين السلطة والحاجة إلي الحرية، فالإنسان يرتبط بالمجتمع ارتباطاً ضرورياً من خلال عمله لتحقيق شخصيته كوجود اجتماعي خلاق. وبالتالي، فإن شخصية الفرد هي نتاج لتفاعل العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية والثقافية.

فحوى هذا التعريف العام أن الشعور بالأمن والانتماء يتم في التواصل مع المجتمع، والانفصال عن العالم يمثل تهديداً لكيانه وباعت لخطر وبالتالي يخلق لديه شعوراً بالعجز والقلق. ويرى فروم أن الحل المناسب هو إيجاد علاقة مع الإنسان والوسط المحيط به، ويكون ذلك في الأكثر عن طريق الحب والعمل البناء، وشعور الإنسان بالعزلة يجعله يستخدم طرقاً غير منطقية للانتماء، وتكون في العادة واحدة من ثلاثة: السادية والماسوكية أو الهدم. ويسمى فروم هذه الطرق بالعمليات الهروبية، ويلاحظ بأن ما يسمى بالعمليات الهروبية تستبطن بواعث عنف خفي في بنيتها، لذا وجب علينا الفصل بين الشخصية السوية والشخصية غير السوية. وفي رؤيته هذه، نرى أن فروم قد خرج عن نطاق نظرية



فرويد بتأكيده على تأثير الوضع السياسي والاجتماعي في بناء شخصية الإنسان (أنظر كتابه "الهروب من الحرية" "Escape from freedom")، ونرى أن هذا المفهوم يتواءم وهدف هذه الدراسة. في تعريف آخر، يرى سوليفان (Sullivan, 1968) أن الشخصية هي مجموعة العمليات الدينامية التي تتصف بحالة من التدفق الثابت لعمليات الطاقة، وعلى سبيل المثال، فدينامية الكراهية تتكون من تحول أو إعادة تشكيل الطاقة الفيزيائية إلى تفكير خفي، أو سلوك ظاهر يختزل التوتر من خلال العدوان. فالدينامية هي النمط الثابت نسبياً من تحول الطاقة إلى إحدى الصور الأخرى، وتتميز بتوجيهها للكائن العضوي ككائن حي، كما يعرف النمط Pattern بأنه خلاف من الاختلافات الجزئية غير الواضحة، ولذلك يفضل سوليفان مصطلح الدينامية لأنه يشير إلى الميكانزمات العقلية والنظام النفسي، ويدل على القدرة النسبية المحتملة للفرد أن يكون بمنأى عن أي متغيرات. كذلك نرى أن مفهوم سوليفان يلبي بعض ما نود الذهاب إليه في هذه الدراسة.

موضوع دراسة الثقافة والشخصية موضوع يتطلب جهد مشترك بين مجالات علم النفس والانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهو يهدف إلى بيان التفاعل بين الشخصية والثقافة، ولاحظنا بأنها كثيراً ما تتجاهل المواقف العرضية على بناء الشخصية وتطورها. ونحاول هنا في بحث إمكان قيام علاقة تداخل وتفاعل بين الإنسان والمحيط، بعد أن ثبت أن التفسير الأحادي للإنسان ومشكلاته قاصر وزائف وأن تحطيم الفواصل بين العلوم الإنسانية ضرورة، لذا وجب الاهتمام بدراسة الشخصية الثقافية وفق متغيرات علم الطبيعة وقيم التنشئة الاجتماعية والسياسية.

الحاجة إلى الانتماء:

في متابعة التوتر الخلاق لدرء مخاطر فوضى الحياة ونحن نتابع شخصيات تنظيم حركة اللواء الأبيض في عامي 3 / 2 / 1924 وهم في سبيل بحثهم عن فيض الحياة الذي بدأ في التلاشي بفعل عنف المستعمر الذي جابه به الحركات التي أعقبت هزيمة الثورة المهديّة خاصة تلك الهبات المسلحة التي قادها بجسارة البطل عبد القادر ود حبوبه وأعتلى راضياً عتبات المشنقة، حيث تدهشنا مجموعة القيم التي كانت تحكم بناء الشخصية آنذاك، خاصة التماهي في الأهداف وصيرورة تحول الإخلاص ونكران الذات إلى درجة عالية من التسامي، ونرى بعد حين أبطال جمعية اللواء الأبيض وهم يواجهون عنف الجلال، فنصبح أمام مجموعة من شخصية واحدة خلاقة، وتمثل الروح الكلية في الإنجاز حاجة الإنسان إلى الارتقاء ونحن نستمتع لمرافعة البطل علي عبداللطيف أمام المحكمة وهو



يقول: "نعم أنا رئيس الجمعية، وقد قرأت في جريدة الحضارة عن اجتماع يونيو (يشير لاجتماع خطير من بعض أعيان أدمرمان يطالبون فيه بأن يكون السودان تحت الوصاية الانجليزية)، وكنت أنا وصالح عبد القادر اتفقنا على إرسال تلغراف (يرمي لإرسال تلغراف للحاكم العام احتجاجاً على وضع السودان تحت الوصاية الانجليزية، وكان شديد اللهجة)، ولكن بعد ذلك وحدنا العمل ونظمناه وعملنا القانون وانتخبوني رئيساً للجمعية وصارت كل المخاطبات بعدها تأتي باسم الرئيس، وأنا قبلت الرئاسة واشتغلت بهذه الصفة". شخصية مقدامة ذات فدائية وصمود لا تردد فيه ولا انهزام. وفي مقطع آخر من دفاعه أمام المحكمة يقول: "وقد قرأت أنا بنفسى مقالاً في التيمس عن تصريح ماكدونالد(رئيس الحكومة البريطانية) بأن 92% من الأهالي السودانيين مع الإنجليز، وهذا ما جعلنا نجهر برأينا لتصحيح هذا الخطأ!". وعند الحكم عليهم، نُفي خمسة من قادة جمعية اللواء الأبيض إلي مدينة واو ببحر الغزال، وهم علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين وعلي البناء ومحمد عبد البخيت ومحمد المهدي الخليفة. وكان عبيد حاج الأمين قد زار في وجه محاكميه قائلاً لا: "إنكم تستطيعون أن تحاكموني ولكنكم لن تستطيعوا الحكم عليّ، فإن هذا للشعب وللتاريخ!" (ملاح، حسن نجيلة).

شخصية البطل عبيد حاج الأمين شخصية سودانية جديرة بالتمعن والدراسة، وللأسف لم تجد حظها اللائق والتعريف بدورها الذي يتصف بفكر ثاقب ونكران للذات في الذائقة الفدائية. يوصفه الأستاذ حسن نجيلة، عن طريق محدثه في ملاح من المجتمع السوداني، بأن عبيد حاج الأمين كان فتىً أقرب للطول، نحيف القوام، أنيق الهمام، واسع العينين، يشع منها بريق الذكاء، يتحدث مسرعاً في اقتضاب، لم يكن خطيباً ولا رجل جماهير، وهذا جعله يكرس جهده لرسم الخطط السرية للجمعية (يعرف قدراته ومهاراته التنظيمية). وعبيد حاج الأمين كشخص يعرف قدرات نفسه، ترك الجانب الخطابي الشعبي لعلي عبداللطيف الذي كان أكثر شهرة منه بين الجماهير (تقاسم أدوار)، ومعرفة الذات والوعي بالقدرات هو المدخل السليم لاحترام الذات والدافع لكفاءة الإنجاز، وهذا يدرس الآن في علم الشخصية المعاصر. تخرج عبيد حاج الأمين في السنة الثانية في كلية غردون القديمة (ثانوي) وعمل موظفاً في الحكومة، ثم منخرطاً في تأسيس الحركة الوطنية. (ملاح – حسن نجيلة).

وفي سؤال لأحد مؤسسي جمعية الاتحاد التي سبقت جمعية اللواء الأبيض في التأسيس، والتي قادت النضال ضد المستعمر الإنجليزي، ومن ثم انضمت مجموعة من أعضائها لجمعية اللواء الأبيض الوليدة: كان السؤال عن أي الأعضاء كان يقود الجناح الثائر بينكم؟ قال حسن نجيلة بأن محدثه لم



يتمهل وإنما أجاب مسرعاً، كل الشباب كان ثائراً، إلا أن عبيد حاج الأمين كان أمة وحده، فقد كانت طاقة وطنيته ضخمة.

إن ديناميات شخصية عبيد حاج الأمين تحركها طاقة ضخمة نحو أهداف محددة، استمع له وهو يحكي: "عقد لي مجلس تأديب لأنني أرسلت تلغرافاً للصحف المصرية دون أن أعرضه على المخابرات (ها ها ها) (تهكم وسخرية)، وقد قرر مجلس التأديب رفتي من خدمة الحكومة وهذا ما كنت أنتظره من زمن بعيد لأنقرغ لواجبي نحو بلدي كما أريد". ثم أنظر إليه وهو يكتب أحد رفاقه مرحباً بفصله من خدمة الوظيفة: "وهذا ما كنت أنتظره من زمن بعيد"، يحدث ذلك في زمن كانت الوظيفة هي الأمل المرتجى، وهو كان يرجو الانعتاق من قيدها ليتفرغ لخدمة الوطن، أي تفاعل وتشابك للقوى الدافعة والشحنات والقوى المقيدة الكابحة في المجتمع في التمسك بالوظيفة. وفي الجانب الآخر، تظل خدمة الوطن كهدف سام تحت رحمة الشحنات المضادة، وجميع الصراعات في الشخصية يمكن إرجاعها إلى تعارض هاتين المجموعتين من القوى. فكل توتر يطول يؤدي إلى فعل مضاد لقوى دافعة من جانب وقوى كابحة. وسواءً كانت هذه القوى شحنات الأنا المضادة للمعارضة لشحنات الرغبات الذاتية (ألهو) أو الشحنات المضادة لمتطلبات المجتمع (للأنا الأعلى) المعارضة لشحنات الشخصية (الأنا الوسيطة) فإن النتيجة فيما يتعلق بالتوتر تظل واحدة.

وبما أن عبيد مسكون برغبة التفرغ لخدمة الوطن، نراه ممثلاً برؤية النهضة القومية في تحالفه المبكر بقيادة اللواء الأبيض ومغادرته لإشكالية جمعية الاتحاد التي كانت تنتهج خطأ نهضوياً سلمياً مغايراً للروح الصدامية، لذا نراه يختار طريقاً آخر، وذلك دون قطع الوشائج النضالية معهم.

لا رومانسية ولا فصام أرى:

لقد أغفل كثير من الدارسين لتلك الحقبة فضائل عبيد حاج الأمين التي تستنهض وعياً مبكراً في تجسير الفكر من خلال التفرغ لإنفاذ المهام الفكرية على أرض الواقع. فعبيد الذي آخا بين مناهج العمل النهضوية المتعددة في جمعية الإتحاد وجمعية اللواء الأبيض، اختار الطريق الصاعد صعوداً مستمراً صوب التحالف القومي في محاربة الاستعمار دون الخوض في محاصصة نظرية مربكة لأهداف القضية الكلية. في دراسة عن الأفندية ومفهوم القومية، يقول المرحوم د. خالد حسين الكد في مقالة له حول الأفندية "أن الهوية والقومية كمفهومين — بما في ذلك الهوية العربية الإسلامية — لم يتم طرحهما كقضية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى التي تعتبر معلماً بارزاً في مسار مفهوم القومية في البلدان



المستعمرة ومن ضمنها السودان. والأفندية، من ناحية، كانت أعدادهم قد تضاعفت حين اندلعت الحرب، ومن ناحية أخرى فقد كان التطور في التعليم وأساليبه قد أتاح لهم فرصة أوسع للاتصال بالعالم الخارجي. والنفاش الذي ابتداء قبيل الحرب وأثناءها ولمدة طويلة بعدها عن "الأمم" و"حق المصير" أثار انتباه الأفندية الذين كانوا قد بدعوا يتمتعون بوضع اجتماعي واقتصادي جعلهم ينظرون إلى أنفسهم كطبقة اجتماعية مميزة عن التركيبة الاجتماعية التقليدية. واستنجد خالد الكد بعلي ملاسي لكي يوضح ويؤكد وجهة نظره حيث أضاف "وقد عبر عن ذلك بصورة واضحة علي ملاسي الذي كان قد تخرج عام 1914 وعُين أفندياً في مصلحة البريد والبرق، والذي انضم لاحقاً إلى جمعية اللواء الأبيض". يقول ملاسي: "منذ 1914، على ما أذكر، ونحن شبان، صادفنا الحرب العظمى الأولى سنة 1914، وكانت تلك بادرة يعني أدتنا نشاط لنتابع حوادث تلك الحرب، وفي الوقت داك كان في شيء اسمه رويتر يطلع هذا الرويتر كل أربعة وعشرين ساعة ثلاث مرات، فنحن موظفين البريد والبرق وبالذات كنا نأخذ هذه النسخ ونقرأها ونستخلص منها الواقع. أول شيء فهمنا إنه هناك في وطن وهناك في ناس يحاربوا عشان وطن يعني أدتنا فكرة".

ربما نرى تعميماً مَخلاً بوضع كل الأفندية في خانة واحدة، ونرى إجحافاً للنهج الذي اختاره عبيد ورفاقه بمحض إرادتهم عندما انسلخوا عن جمعية الإتحاد واختاروا طريق مواجهة المستعمر السافرة لتحقيق تلك الأهداف.

يقول د. خالد الكد: "هذا الرفض الرومانسي للحكم الأجنبي الجديد وهذه الرؤية للهوية، كانا سمة مميزة لذلك الجيل الذي يعاني من انفصام؛ بين رفضه للحكم الأجنبي، وحقيقة وجوده كطبقة جديدة هي في حد ذاتها نتاج نظام اقتصادي واجتماعي جديد استقدمه هذا الحكم الأجنبي".

بلى، هنالك فوارق في الرؤى، وتستبين هذه الفوارق بوضوح في منهجي التصدي الذين اختارتهما كل من جمعية الإتحاد وجمعية اللواء الأبيض في مناهضة المستعمر، منهج المهادنة والنفس الطويل، وهذا كان ديدن جمعية الإتحاد والطريق الراديكالي في التغيير، وهذا ما أنتهجه اللواء الأبيض بقيادة علي عبداللطيف وعبيد حاج الأمين. وكلا المنهجين لا تشوبهما شائبة الرومانسية الجميلة ولا يعكر صفوهما متلازمة اضطراب الفصام.

فلنصغ السمع للبطل علي عبداللطيف وهو في المحكمة "نحن نعلم أن المظاهرات ممنوعة، ورغمنا عن ذلك عملنا مظاهرات وحصل ذلك بأغلبية الأصوات". لا أرى فصاماً ولا رومانسية جميلة.



ويواصل خالد مسهباً في وصف الأفندية: "فهم يعملون في سلك الإدارة الأجنبية التي غزت بلادهم واستولت عليها، ما لم يكونوا واثقين منه هو ما إذا كان استيلائها على البلاد بهدف إنقاذهم من قسوة الخليفة عبدالله التعايشي، أى الأسباب الإنسانية التي زعمت الإدارة؟ أم أنه كان لتمارس عليهم شروراً أبشع من التي مارسها الخليفة عبدالله؟ هل يحكمهم البريطانيون والمصريون؟ أم أن البريطانيين كانوا ينفردون بالحكم؟ كان ذلك سؤالاً لم يجدوا له إجابة. وتترى تساؤلات المرحوم خالد: "هل كان هؤلاء في أيام الحكم التركي وهؤلاء المصريون الذين تربطهم بهم روابط اللغة والدين، هل كانوا جزءاً من الحكم؟ أم كانوا هم أنفسهم ضحية للسيطرة الأوروبية المسيحية على المسلمين؟ وهل ينتمون هم والمصريون إلى الأمة الإسلامية في مواجهة الحكم البريطاني المسيحي؟".

كانت هذه تساؤلات د. خالد الكد؛ ومن داخل المحكمة تخرج أجوبة قائد اللواء الأبيض وهو يقول: بل كنا معارضين للتغيير المطلوب أي أن يكون الإنجليز مطلقي التصرف بالسودان دون المصريين ويواصل معللاً هتافهم في المظاهرات لملك مصر والسودان، "أعلاه لكون ماكدونالد قال وجريدة الحضارة قالت أيضاً أن السودان يصير جزءاً من إنجلترا فذلك هيّج الناس، وقلنا نقاوم السودانيين القائلين باستنثار الانجليز بالسودان، هذه كانت طريقتنا لإبداء رأينا. كذلك تالله لا رومانسية أو فصام أرى!

ولأن الأهداف كانت واضحة لدى عبيد حاج الأمين، فانتصرت طاقة الحب والعمل البناء، فدينامية الكراهية ضد المستعمر تحولت إلى إعادة تشكيل الطاقة الفيزيائية إلى تفكير وسلوك ظاهر يختزل التوتر من خلال الحب للوطن والعمل البناء. فالدينامية، كما أسلفنا، هي النمط الثابت نسبياً من تحول الطاقة إلى صورة حب الوطن، وهذه هي حالة الهروب إلى الناس كما تسميها كارينا هورني، ونجدها عند سوليفان تتميز بتوجيهها للكائن العضوي ككائن حي، ولذا يطلق عليها مصطلح الدينامية لأنها تشير هنا إلى الميكانيزمات العقلية والنظام النفسي لدى بطلنا عبيد، وكما تدل على القدرة النسبية المحتملة للفرد أن يحدد خياراته والمتغيرات بمحض إرادته الفاعلة، أو كما يؤكد "كانط" بأن العقل هو المصدر الوحيد والنهائي لرسم قيم البشر.

يقول عبيد: "كنت أنوي السفر للكنانة ولكن لن أذهب فقد أودع علي عبداللطيف السجن وأشعر مسؤوليتي قد تضاعفت."



ما هذه الذات المتناهية في القضية، أليست سوى أن الإنسان عندما يصبح إنساناً ويمزق عرى الوحدة الحيوانية الأولية بالطبيعة، فيتخلص من الأنانية والمنافع الذاتية بما له من قدرة علي التجريد والتخيل وخلق علاقاته الخاصة به والأكثر تحقيق للإشباع، وهي تلك القائمة علي الحب الخلاق الذي ساد في مرحلة العشرينات من القرن الماضي وضمخ كافة ربوع الوطن وجعلت من عبيد حاج الأمين رمزا يبقى وجسداً يتلاشى راضياً في منفاه ببحر الغزال؟

لم ينقض سوى زمن قصير وقادة جمعية اللواء الأبيض رهن سجن كوبر وقبل ترحيلهم إلي بحر الغزال، حتى أزهر الحب والعمل البناء الذي غرسوه في حديقة الوطن، إذ خرج طلبة المدرسة الحربية في الخرطوم بملابسهم الرسمية يحملون السلاح مزودين بالذخيرة حيث طافوا شوارع العاصمة وقصدوا منزل البطل علي عبداللطيف الذي كان معتقلاً هو وقادة الجمعية وأدوا التحية العسكرية أمام المنزل. وواصلوا مظاهراتهم حتى سجن كوبر وأدوا التحية العسكرية لسجناء الحركة الوطنية خلف القضبان وقللوا راجعين وتحملوا بإباء الأحكام التي أنزلت بحقهم.

"إنني لا أطلب البراءة لأن التلاميذ لم يكلفوني بطلبها، ولا أطلب الحكم عليهم، فإن هذا يخص المدعي، ولكني أقول أنهم كلفوني أن أقوم لدى حضراتكم برجاء. إن غاية ما يرجونه وكل ما تطمح إليه نفوسهم وقبل أن تقولوا كلمتكم – ذلك الرجاء هو ألا تطعنوا في وطنيتهم أو احترامهم للقانون!" وكان عدد طلبة الحربية 51 طالباً أدينوا كلهم بالسجن فترات كان أقصاها خمس سنوات.

ولم تكذ تهاداً الأحوال حتى تواصلت كرة النار المقدسة التي أشعلها أبطال جمعية اللواء الأبيض وتحركت القوة السودانية المتجهة صوب الخرطوم بحري بغرض الاتصال بالجيش المصري الذي كان يتأهب لمغادرة السودان نهائياً، وكانت القوة المكونة من مائة جندي بقيادة عدد من الضباط السودانيين وهم عبد الفضيل الماظ وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وعلي البنا وسليمان محمد، وعند الكوبري وجدوا قوة من الجنود الإنجليز تسد الطريق وكان الكبري مغلقاً، وأطلقت القوة الإنجليزية رصاصها في الهواء إرهاباً، فأسرع رجال القوة السودانية فتحصنوا بالجدال التي في طرف الشارع وصوبوا نيرانهم الحامية نحو الجنود البريطانيين، فأردوا عدداً منهم في الحال! ودارت المعركة لليلة وضحاها، وعندما نفذت الذخيرة من الجنود السودانيين أخذوا يتسللون ليلاً ويختفون. وقد استشهد داخل مباني المستشفى العسكري (مستشفى النهر) الضابط عبد الفضيل الماظ بعد أن احتمي بهذا المستشفى وأخذ يصلي الجنود الإنجليز وابلأ من رصاص مدفع المكسيم. ولما لم يتمكنوا من الاقتراب منه أمرت



الطابية الإنجليزية أن تلقي على المستشفى القنابل الثقيلة من بعد، فهدمت جانباً من المستشفى على رأس البطل! ووجدت جثته فيما بعد تحت الأنقاض وهو ممسك بالمكسيم بكلتا يديه كأنه ما زال يواصل المعركة!

صورة مطابقة في أحداث أخرى:

ونعني بها صورة تمكن الضابط سيد فرح من التسلل في منتصف الليل بعد نفاذ الذخيرة وقطع النهر سباحة حتى شاطئ الخرطوم بحري حيث تخفي في زي البحارة وتخفي في ملابس بحار أحد عمال الواهورات ثم أتصل بالجيش المصري المرابط هناك وتمكن من الهروب معه إلي مصر وظل متخفياً منتقلاً في القرى المصرية منتحلاً شخصية مغايرة حتى أبرمت معاهدة 1936 الإنجليزية - المصرية وأعلن العفو عن المحكومين السياسيين فأظهر نفسه وعُفي عنه.

أعتقل بقية الضباط وقدموا لمحكمة عسكرية لم يعرف أحد ما دار فيها وحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص. وهم الضباط حسن فضل المولى، ثابت عبد الرحيم، سليمان محمد وعلي البنا. وفي ساحة التنفيذ، عدل الحكم على الضابط علي البنا من الإعدام إلي التأييد ثم إلي عشر سنوات سجنًا. ودفنوا في حفرة بغير أن يكون بجانبهم أي أحد من ذويهم وحرّم علي أي منهم الاقتراب من تلك المقبرة التي سويت مع الأرض إمعاناً في إزالة أي معلم يخبر عنهم.

الصفات التي توصف بها الشخصية السوية تشمل الحب، الإبداع والعقلانية، وتشكل الإطار المرجعي، وقد وصف فروم ثلاثة عناصر مكونة للشخصية هي الذات والضمير والسمات، ونحن في مسار بحثنا عن الكائن الجميل دعنا نتمعن في شخصية البطل عبيد حاج الأمين ونزريح في بشاشة فداحة الغبار عن صورة الذات ومستودع الضمير وجمالية السمات.

هذه الذات التي يقال عنها عبارة عن تنظيم يتكون من مجموعة من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم بها الفرد منذ طفولته وينبع إحساس الإنسان بالذات من التجربة مع ذاته كموضوع للتجارب والتفكير والشعور والاتصال والشعور بالذات هو جزء من الشعور بالانتماء والارتباط بالعالم، فإذا فقد الإنسان الثقة في الذات، فإنه يحاول أن يسترجع الشعور بالانتماء وتحقيق التوافق مع القيم السائدة في المجتمع. كيف استوعبت في ذلك الزمن الباكر رومانسية الثورة وزهد المتصوفة وفدائية الاقتحام؟ لم تخلق انقساماً في جمعية الإتحاد بل جعلتها جسر متواصل لحركة التاريخ في تطوره الطبيعي. أنظر



لعبيد وهو يقود العمل السري ضد المستعمر في موقعه الجديد بجمعية اللواء الأبيض وهو يتواصل مع رفاقه القدامى في جمعية الإتحاد:

"الأخوان بمصر يحتاجون لمال فأرسل لعبد الله يقصد عبد الله خليل - ما يمكنك إرساله وسيعمل على أن يصل المال إليهم. معذرة فأني وقتي لا يتسع للإسهاب - تحياتي لك أخوك عبيد 1924 /7/20".

الضمير يمثل المستودع الرئيسي للميراث الروحي والاجتماعي والثقافي في تكوين الشخصية، فالضمير هو القوة المحركة التي تدفع الإنسان إلى أداء سلوك معين أو عدم أدائه لهذا السلوك حسب متطلبات المجتمع. أنظر لتماسك بنية الضمير عند عبيد وهو يحكي عن مظاهرة 1924/6/17 ضد الإنجليز، وما أعقب المظاهرة من إغراءات بالوظيفة التي رفضها في إباء وشمم "كانت هناك مظاهرة ضخمة جداً دبرت عندما ذهبنا لنقابل الوفد الذي أرسلناه لمصر وأرجعته الحكومة من حلفاء، وقد حاول بعضهم أن يحملنا على الأعناق فرفضنا". في موقع آخر من الرسالة يضيف عبيد "ومن الغريب أن الحكومة لم تسألني بل أمر المفتي أن يزجني. وقد قدم لي المفتي عرضاً منهم أن أكون نائب مأمور في السنة القادمة ولكنني رفضت بشدة، قد بلغني اليوم أنهم قد ينقلوني ولا أعرف إلي أين. تحياتي لكم. أخوك عبيد".

إن فكرة الضمير عند عبيد كما وردت آنفاً لا يمكن ردها لأساسها التاريخي أو الاجتماعي والجغرافي، وإنما ردها لبصيرة نافذة عن معنى الخير مقابل شر المستعمر، ومعنى الجمال مقابل القبح الاجتماعي من رشوة ومكاسب آنية ومعنى الوطن مقابل الذات الآيلة للسقوط التي ما برحت تحدث حولنا وتزيد اشمئزازنا.

سمات شخصية عبيد حاج الأمين هي جزء من القوة الخلاقة في المجتمع والتي تطبع الذات بطابع اجتماعي، وهذه السمات هي العناصر الاجتماعية في تكوين الشخصية، وفي رأي لإريك فروم أن هذه السمات ليست فطرية أو ثابتة، إذا أنها تختلف حسب نوع العمل الذي يؤديه الفرد. وإن العمل الذي اختاره عبيد هو سر القوة الخلاقة التي جذبت اهتمامنا اليوم وبعد كل هذه السنوات من النسيان والإجحاف أن نقل فيه كلمة صدع بها قبلنا محدث الأستاذ حسن نجيلة في الملامح، إذ قال: "ذلك الفتى الذي قتله الاستعمار ظلماً وعدواناً إذ لم يكتف بسجنه بل أرسله منفياً إلى واو ليموت بفعل الأوبئة التي كانت تعج بها تلك المنطقة، وقد تحقق فعلاً للاستعمار ما أراد، إذ مات عبيد متأثراً بالحمى السوداء وجن رفيقه في المنفى وصنوه في الجهاد -علي عبد اللطيف- وقدر له أن يعيش فاقد العقل حتى فارق الحياة!".



في رأينا أن ما أراده المستعمر ما تحقق وأنى له ذلك ونحن اليوم بعد كل تلك السنوات نكتب عن عبيد حاج الأمين الذي صدقت نبؤته التي زينا بها صدر هذا المقال: "إنكم تستطيعون أن تحاكموني ولكنكم لن تستطيعوا الحكم عليّ، فإن هذا للشعب والتاريخ!". وما نفعه الآن هو حكم التاريخ، وأما ما ذكر عن جنون البطل علي عبداللطيف، فهو ما نرجو أن تسعفنا به مقبل الأيام في جمع معلومات عن حياة البطل تعيننا في قول كلمة علمية عن مفهوم الجنون والذهول وما بينهما من فوارق إن شاء الله.

نعم في زمن لاحق، 1931، أي بعد القضاء على حركة اللواء الأبيض بدأت رومانسية الأفندية في الكفاح بسياسة كتابة المذكرات ذات المطالب القنوية من قبل اللجنة الموسومة بلجنة العشرة، ولكن الحاكم العام لم يقدّم وزناً لهذه المذكرة وأغفلت الحكومة أمرها وأصدر الحاكم العام أمراً يحل لجنة العشرة فوراً حتى لا يتيح الفرصة لمناقشات تدور بينها وبين الحكومة تساعد في نشر الوعي الوطني وهو أكثر ما يخشى حدوثه الانجليز. (الملاح- حسن نجيلة).

- ثبتت المراجع ضمن متن البحث.
 - يظل كتاب ملاح من المجتمع السوداني كمرجع أساسي.
 - أنظر "الهروب من الحرية"، إريك فروم؛
 - و
 - "علم النفس الباطني"، كالرينا هورني؛
- يظان مرجعين لعلم الشخصية

* قُدمت هذه الورقة في المؤتمر العام الثالث لاتحاد الكتاب السودانيين، الذي انعقد بقاعة الشارقة، الخرطوم، من 14 إلى 16 نوفمبر 2009، تحت عنوان "التعددية الثقافية ومستقبل السودان: وحدة أم انفصال؟!".

** د. عبد الباسط ميرغني، اختصاصي في الطب النفسي، وأستاذ بجامعة الجزيرة قسم علم النفس. صاحب كتاب في الشخصية السودانية، وعضو اتحاد الكتاب السودانيين.

